

الاغتراب بين العبقرية والجنون في رواية "كراف الخطايا" - لعبد الله عيسى حليح -
Alienation Between Genius and Madness in the Novel "Karaf Al-Khatayat" - by Abdullah Issa Lahelih -

د/ عبد الرحمن مزرق

جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل (الجزائر)، arabi.mez@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/04/25 تاريخ القبول: 2025 /01/06 تاريخ النشر: 2025/03/30

ملخص:

من أجل خرق أفق القارئ، وأسره والإحاطة به من كل الجوانب، يلجأ الكثير من الكتاب الروائيين إلى استراتيجيات تعينهم على ذلك، وتمكنهم من تمرير رسائلهم وما يصبون إليه، ولعل ظاهري العبقرية والجنون هي الاستراتيجيات الفعالة في هذا التمرير المحمل المكثف. فكيف تجلّت هذه اللعبة في رواية "كراف الخطايا" حيث جعل كاتبها البطل "منصور" يعيش حالة اغتراب فريدة بين هذه الجدلية المتفاعلة.
كلمات مفتاحية: كراف الخطايا؛ الاغتراب.

Abstract:

In order to breach the reader's horizon, capture him, and surround him from all sides, many novelists resort to strategies that help them to do so, and enable them to pass on their messages and what they aspire to, and perhaps the phenomena of genius and madness are the effective strategies in this intensely loaded scroll. . How was this game manifested in the novel "The Sinner", where its writer made the hero "Mansour" live in a unique state of alienation among this interactive dialectic?

Keywords: karraf elkhataya; alienation.

مقدمة:

كثيرا ما تحدّث الناس عن الخيط الرفيع بين العبقرية والجنون، وكثيرا ما ربطوا بين اللَّفْظَتَيْن في ظواهر ومظاهر شتّى. إلّا أنّ الدّارس المتّمعن في كلا الصّفَتَيْن يدرك تمام الإدراك البعد الشاسع بين المعنيين الذي يعلو مع هذا ليلاّمس الاستنارة، وينخفض مع الآخر إلى رتبة البهيمية. ولم تكن الجدلية بين البعدين إلّا من خلال نظرة الإنسان وحكمه، فطبيعة البشر تنظر إلى غير المألوف نظر تعجب وريبة، ومن ثمة يكون القياس والحكم، فبضدها تتميز الأشياء.

ولما كان الأدب هو الأخذ من كلّ شيء بطرف، ولما كان الإبداع هو الخلق والتجاوز، فقد عمد كتاب الرّواية لاستعمال التقنية الجدلية، ليمرّروا كثيرا من الرسائل وليثبتوا ما شاء الله لهم من المفاهيم، متلاعبين بعواطف القارئ

وأحاسيسه بفضل هذه القدرة الأدبية الساحرة المناسبة في أسلوب الكاتب الرّصين.

من هذا المنطلق جاءت هذه المقاربة لمحاولة استكشاف هذه الجدلية بين العبقرية والجنون من خلال اللّعبة الممارسة على البطل من طرف الكاتب عيسى حليح في رواية "كزاف الخطايا"، علّنا نتفهّم حالة الاغتراب وانشطار الذات جزاء عقدة التفوق والاستبصار.

1/ مفهوم الغربة والاغتراب:

يعتبر " هيغل " من المفكرين الأوائل الذين وضعوا فلسفة جدلية حول مفهوم الاغتراب، باعتباره حالة تفرزها التناقضات الاجتماعية التي يمكن أن يعيشها أي إنسان. ومفهوم الاغتراب لديه يمثل حقيقة تستمد جذورها من الوجود الانساني الأوّل في هذا العالم.

ولعل المقصود بالاغتراب عند "هيغل" «هو تلك العملية التي من خلالها يفقد الإنسان جزءا من ذاته في الوجود الخارجي، وفي هذا الفقد إمّا أن تعثر الدّات على نفسها في العالم الذي أنتجته، فتتكامل مع ذاتها، وإمّا أن يكون العالم الذي أنتجته غريبا عنها، ولا ينتمي إليها، بل ويقف عدوا لها» (عباس، 2008).

ربّما كان هذا المفهوم هو نفسه عند ماركس، الذي كان يركّز على حقيقة اغتراب الإنسان عن جوهره الإنساني، بمعنى أنّه لا يمارس ذاته كقوّة فعّالة في العالم، لأنّ طبيعة الأشياء إضافة إلى

الظروف الاجتماعية والسياسية تقف حائلا مسيطرا على إرادة الإنسان، فارضة في كثير من الأحيان سيادة لا فكاك له منها.

وقد يأخذ هذا المفهوم بعدا نفسيا داخليا، فمكبوتات الإنسان وآلامه لها طابعها الاجتماعي، الشيء الذي يولد القلق والاضطراب، وعدم الشعور بالأمن، مما ينشأ عدد من التناقضات والمفارقات التي يقع الإنسان تحت عبئها وعبثها، وهو ما يبعث في نفسه عزوفا وانعزالا عن الآخرين، وربما لا مبالاة كذلك، ومقتا، واحتقارا، وفي الوقت نفسه يبعث فيه حنينا إلى الماضي ومحاولة العيش في أوهامه، وهذا ما يؤدي به إلى فقدان فرديته الشخصية الواقعية، وتفرد من حيث هو كائن بشري. والمفاهيم عادة ما تنتظم في نسق دلالي يتألف من حقول متعددة، متجاورة، متشابكة، ترتبط فيما بينها بعلاقات منطقية وجودية.

فمفهوم (الغربة) البسيط، يتجاوز مع مفهوم (السفر) وينتج عنه، كما يتجاوز مع مفهوم (الحنين) ويؤدي إليه، وهي في معاجم اللغة بمعنى الاغتراب والنوى والبعد، والتغريب: النفي عن البلد (الرازي، 2004)

وهي بهذا الشكل تحقق معناها في البعد عن الأهل والسكن والأحباب، آخذة معها ذكريات الأماكن والأصوات والأشياء، وحتى الطعوم والروائح والأذواق. وقد استخدم مصطلح الاغتراب بطرق مختلفة ومعاني متعددة، شكلت ضبابية حوله وغموضا.

كلمة (اغتراب) (Alienation) في اللغة الانجليزية، و (Aliénation) في اللغة الفرنسية لها أصل لاتيني واحد هو (Alienation)، والمتتبع لاستخدامات هذا الاصطلاح في اللغتين، سيجد تماثلا كبيرا بينهما ; لأن كافة الاستخدامات مستمدة من الأصل اللاتيني المشترك (عباسي، 2000).

وبالإمكان من هذا التماثل استخراج ثلاث معان يستخدم فيها مصطلح الاغتراب وهي:

- 1- فقد يستعمل بما يتعلق بالملكية، وهذا ربما يدخل في المفهوم القانوني لانتقال الملكية.
- 2- وقد يفيد معنى فنور علاقة ودية مع شخص أو أشخاص آخرين.
- 3- وربما ارتبطت كلمة الاغتراب بالغربة (التغريب) التي تفيد النفي، والنوى والبعد، كما أن هذا المصطلح يفيد في المجال الطبي معنى الاضطراب العقلي الذي يجعل الإنسان غريبا عن ذاته ومجمعه، وهو الأمر الذي تجاوزه الفلسفة حينما أشارت إلى غربة الإنسان عن جوهره.

ومعظم مفاهيم ودلالات لفظة (الاغتراب) في القواميس الأوروبية مرتبطة بالانتقال المكاني والبعد عن الوطن، وكذا مرتبطة بعدم التوافق أو الانسجام مع اللحظة الآنية أو نظم المجتمع السائد. ونخلص إلى أن جميع المعاني التي تعبّر عن مصطلح الاغتراب، تشترك في معنى واحد: هو الانفصال والانسلاخ.

وإذا كان الدارسون قد واجهوا إشكالية ضبط وتحديد هذا المفهوم، فإن الأشكال التي يتنوع فيها (الاغتراب) أكثر غموضاً وتعقيداً، لأنه لا يوجد شيء يسمى بالاغتراب العام أو الشامل، بل هناك أنواع منه، كانت موجودة ولا تزال، وربما ظهرت أنواع أخرى مع استمرار المغامرة الإنسانية في سيرها الدؤوب في دروب الوجود المتعددة والمتباينة، « ولعلّ علماء الاجتماع والفلاسفة الاجتماعيين يحسنون صنعا إذا وجّهوا اهتمامهم الى هذه الأنواع، وذلك لأنها تشتمل على العديد من أهم الإمكانيات التي يمكن أن تظهر على طريق الدراما المستمرة للحياة والتجربة الإنسانية » (شاخست، 0000)

إلا أنّ هذه الدراسة لن تفوّت الفرصة للإشارة إلى أنماط ثلاث من أنواع الاغتراب، تراها رئيسية وأساسية لكل أنواع الاغتراب الأخرى، وهي:
أولاً: الاغتراب عن العالم وعن الآخرين، أو الاغتراب الموضوعي.
ثانياً: الاغتراب عن الذات، أو الاغتراب الذاتي.
ثالثاً: الاغتراب عن الله، أو الاغتراب الغيبي.

ومهما يكن من شيء فإنّ هذا المفهوم كفكرة يقوم على أساس التمييز بين الوجود الإنساني وجوهره، على أساس أن صورة الإنسان في مجتمعه لا تتفق مع جوهره وحقيقته، بل ربّما كان بينهما تعارض مثير، فما هو كائن لا يتّفق مع ما ينبغي أن يكون. والإنسان المغترب (الغريب)، هو الإنسان الذي لا يحس بفاعليته ولا أهميته ولا وزنه في الحياة، وإنّما يشعر بأنّ العالم على عكس ذلك، غريب عنه (حجاري ع، 1985).

وربّما كان الاغتراب الاجتماعي من أشدّ أنواع الاغتراب وأكثرها انتشاراً وشيوعاً، حيث يشعر صاحبه بانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، مثل:

- الشعور بالانفصال عن الآخرين.

- الشعور بالانفصال عن القيم والأعراف والعادات السائدة.

- الشعور بالانفصال عن السلطة السياسية الحاكمة.

وكل ذلك يؤدي إلى إحساس بالألم والحسرة، أو بالتشاؤم واليأس والإحباط، وما يرافق ذلك أحيانا من سخط أو تمرد أو نقمة أو ثورة..

وهذا الشعور يتفاوت فيه الناس، ولكن الشخصية الحساسة التي فيها شيء من العبقرية والتفوق قد تكون الأكثر عرضة لهذا الشعور من بين الآخرين، ف"شاخت" «يعزو انعزال الفرد اجتماعيا إلى كونه شخصا خلاقا، فربما يحكم كنهه كذلك، شخص غير متوافق، يضع التقاليد موضع التساؤل أو يخرج عنها، وكلما كانت أصلاته أكثر عمقا، ازداد اضطرابه للاغتراب عن مجتمعه» (الله، 2005). فهل كان بطل رواية "كراف الخطايا" من هذا النوع الأخير وكيف تجلّت هذه الحالة بقلم الكاتب؟

2/ في ماهية العبقرية:

ذكر صاحب لسان العرب أن «عبقّر : موضع بالبادية كثير الجنّ، يقال في المثل كأفهم جنّ عبقر (...)» ثم نسب العرب إلى ذلك الموضع كل شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعه وقوته، فقالوا : عبقرّي وهو واحد وجمع، والأثنى عبقرية « (منظور، 1995).

وفي حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - " لم أر عبقريا يفري فريه "، حيث أفاد معنى العبقرية هنا القوة المبدعة غير العادية والمتفوقة.

وفي القرآن الكريم : (مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) (الرحمن -76-

والعبقري نسبة لكل منسوج فاخر، ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة والمنظر، ونعومة الملمس (السعدي، 0000)، فالعبقرية حالة من قوة الخلق والإبداع. وهي صفة نطلقها على نوعية العمل الذي يتجاوز حدود المؤلف المعروف..، وقد باتت هذه اللفظة في عصر الأنوار تشير إلى الفرد الذي تبدو عليه قدرات استثنائية عقلية أو إبداعية، فطرية أو مكتسبة، أو كلا الأمرين معا (روبرسون، 2014).

وفي نهاية القرن الثامن عشر اعتبر عبقريا الفرد الذي يتميز بالنمو العقلي السريع بحيث يتجاوز عمره العقلي عمره الزمني، فيصبح بذلك متقدما على أترابه من حيث قدرة التعلم وإدراك العلاقات ثم اعتبر هذا الفرد كذلك، إذا حصل على نسبة ذكاء تساوي أو تفوق 140 بمقياس الذكاء. وقد

كان هذا التصنيف متجاوبا إلى حدّ بعيد مع ما قاله كانط (cant) من أن: « العبقريّة موهبة في إنتاج ما لا يمكن وصفه تحت قاعدة محدّدة » (المغازي، 2004).

ومن المعتقدات التي عشتت في كثير من الأذهان أن العبقري شخص مجنون لأنّه ليس كالأشخاص العاديين، فهو مخلوق غريب عن الأقران ومتفرد، لأنّ العبقريّة في آخر المطاف ظاهرة استثنائية فردية وفريدة، وذات طابع مؤثر في عامّة النّاس وخاصتها، في حين تبقى هذه الظاهرة تشكل غموضا ولغزا استعصى تفسيره على كثير من الباحثين والدارسين.

وقد حاول البعض دراسة هذه الظاهرة واستخلاص العوامل المؤدية لهذا التفوق، والامتياز، فكان لتداخل البيئة والوراثة دور أساسي في ذلك، حيث ذهبت نظريات إلى ترجيح كفة الجينات والعامل الوراثي، وذهبت أخرى إلى كفة التنشئة الاجتماعية والبيئة المحيطة.

ومن ذهب إلى الرأي الأول (نيتشه)، حيث يرى أن « العبقريّة تتحدد بالعوامل الوراثية، وأن العوامل البيئية ليس لها دور في خلق عبقريّة العبقري » (يوسف، 1986)، ومن ثمة فالوراثة تؤثر "على النمو العقلي ونوعه"، خاصة ما يتعلق بالقدرة على الإدراك والتعلم والتفكير والتحليل والذكاء والتحصيل، وأنّ « آلياتها هي المسؤولة أساسا عن الاختلافات الموجودة عند الأفراد إلى غير حد في كل سمة من سمات الشخصية » (فتيحة، 2020).

إلا أن " وكسبرج wexberg " يؤكد على أن « الخبرة التي يتلقاها الفرد بنفسيته هي التي تؤكد أن منجزاته ليست نتيجة لموهبة موروثية، وإثما هي نتائج للشجاعة والتدرب » (يوسف، 1986)، فالبيئة بحسبه هي من أهم العناصر المجدّدة لظهور الإبداع ولذلك قيل الإنسان ابن بيئته، وهنا لا بد من الإشارة إلى أمر من الخطورة بمكان، بحيث أنّ البيئة المحفزة الباعثة لن تكون بأية حال مثل البيئة الجامدة الزاكدة العفنة، فالتّي تخلو من المثيرات تبقى القدرة على الإبداع كامنة، أما المناسبة فتشتمل على مثيرات لا تشوش التفكير، وإثما هي منسجمة معه في هدوء وتناغم. (الحفيظ، 2009)

ومهما يكن من شيء فيمكننا أن نستخلص بأنّ العوامل الوراثية والبيئية تتفاعل فيما بينها وتتداخل مؤثرة في تنمية التفوق العقلي وعملياته وقدراته، فالعبقريّة إذن ظاهرة إنسانية أولا وقبل كل شيء وهي ترتبط بتنمية القوى والقدرات الشخصية، لأنّ الشخصية المتفردة هي الشيء الوحيد الذي يميز بني البشر عن الحيوان، بل يميز حتّى الإنسان عن الإنسان، ومعنى التفرد هنا « هو إلغاء التطابق التام بين بني البشر حتّى لو جمعهم المجتمع أو العقيدة الواحدة » (عمارة، د ت).

وذلك لأنّ الشخصية هي التي تحفظ للإنسان هويته الفردية وكيانه الخاص. وهي عنوان رقيه وتميزه.

ولما كانت العبقريّة نبوغاً فائقاً فإنّ من شروطها الأساسية تحقق الشخصية المستقلة التي تتميز تدريجياً جزاء شمول رؤيتها وموقفها من الحياة، فالتنمرّد على الواقع والمألوف والمتعارف عليه من أهم سمات الشخصية العبقريّة التي تحركها دائماً شهوة الابتكار والتجديد، والهدم وإعادة البناء، والنقد والإبداع.

وبهذا يكون العبقري عنصراً إيجابياً في التطور، وهو الصانع الحقيقي للحضارة، لأنّه الوحيد القادر على التعبير والتجديد وقلب المفاهيم وكشف الأخطاء وتصحيحها، وكثير من الأمور لا يصلح أن يشتغل عليها سوى العقول الكبرى.

لذلك لا عجب أن ترتبط العبقريّة بقوى غيبية ميتافيزيقية في أذهان كثير من الشعوب، فتلك القوى في اعتقادهم، تلهم العبقري وتوحي إليه إبداعه، ولعلّ العرب كانوا من أميل الناس إلى هذا التفسير، إذ ينسبونها إلى الجن والملائكة ومخلوقات روحية غيبية أخرى.

و هذا ما فعله غيرهم من اليونان والرومان حيث أن كلمة (genius) التي تعبر في اللّغة الإنجليزيّة عن معنى العبقريّة، في أصلها كلمة لاتينية، استخدمت للتعبير عن معنى الرّوح الخالق والحافظ للحياة.

3/ في ماهية الجنون:

الجنون في المعاجم اللّغوية هو ما ارتبط بالستر والخفاء، أو ما ارتبط بالجنّ، وذلك لقدرتهم على التخيّل.

جاء في معجم مقاييس اللّغة : « الجيم والنون أصل واحد، وهو الستر والتّستر (...)، والجنّة : الجنون، وذلك أنّه مغطى العقل » (فارس، 1997).

لذلك عرّف الجنون بأنّه خلل في القوى العقلية، واضطرابات ذهنية تؤثر في الشخص فتجعله لا يتحكم في تصرفاته لعدم القدرة على ذلك، أو هو « حالة من النقص أو عدم الاكتمال في النمو العقلي، وانحطاط واضح في الذكاء وفي الأداء العقلي والوظيفي، ممّا يجعل الشخص عاجزاً عن التعلّم والتوافق بين البيئة والحياة دون إشراف أو رعاية » (سليمان، ط 1 2008).

ومن التّاحية العلمية فإنّ الجنون «اضطراب في بنية وظائف الدماغ، ويؤدي إلى اختلال (كَلِّي أو جزئي، دائم أو مؤقت)، نتيجة لعوامل فيزيولوجية أو وراثية، ويلزم منه - معرفيا - اختلال في المقدرة على التمييز، و- سلوكيا - اختلال التحكم في الإرادة. وقد حدّد الطبّ التّفسي الاضطرابات العقلية التي تندرج تحت هذا المفهوم العلمي وتشتمل (الدهان، الصرع، الهستيريا الوسواس الجنوني، ازدواج الشخصية، انفصام الشخصية ...)» (خليل، 2015).

والجنون صفة من أكثر التهم التي طعن بها الأنبياء عليهم السلام من قبل المشككين والجاحدين . قال الله تعالى : «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾» الذاريات 52 .

وقال: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتْرِصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٥﴾» المؤمنون الآية 25، وقال في حق نبينا صلى الله عليه وسلم على لسان مشركي قريش : « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ » القلم الآية 51 ، وكذلك قوله : « وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَنَارِكُوكَ أَلِهَتَنَا لِشَاعِيَ مُجْنُونٍ ﴿٥٦﴾ » الصافات الآية 36.

وقد وصفوا النبي بالجنون « لتوهمهم أنّ ادّعاء نزول الوحي عليه لا يصدر من عاقل، لأنّ ذلك عندهم مخالف للواقع، توهمّا منهم بأن مالا تقبله عقولهم التي عليها غشاوة ليس من شأنه أن يقبله العقلاء، فالدّاعي به غير عاقل » (عاشور، 1984)، كما ذهب الطاهر بن عاشور في تفسير مثل هذه الآيات.

وقد ظهرت محاولات كثيرة عبر التاريخ للربط بين الإبداع الفني والجنون، ومن بين الفلاسفة الذين عالجوا هذه الظاهرة " ميشال فوكو " والملقب بفيلسوف الجنون، خاصة من خلال كتابه " تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي "، وهو كتاب ذو طابع تاريخي يسرد حالة المجتمعات، ومدى تقبلها لظاهرة الجنون خلال القرون الوسطى والعصر الحديث.

وقد حاول فوكو تحرير الجنون من جهل ووحشية العصور القديمة، مقرّاً أنّ المعرفة الطبية عجزت عن تقديم رؤية متماسكة حول الجنون، لأنّ هذا الأخير في الثقافات الغربية، كان لا يقرأ إلّا في خطابات مبعثرة لا يحكمها أي نسق معرفي أو خطاب نصّي (الحكيم، 2022)، وقد استعار أدوات

بحثه من الفن والأدب والفلسفة، حيث عمل على إعطاء صورة مغايرة للجنون، جاعلا منه شخصا له الحق في ممارسة حريته.

وإذا كان فوكو قد عمل على استنطاق التّصوص وكشف خبايا ما وراء السّطور من أجل تحصيل فهم لكل ماله صلة بالإنسان، فإنّ عصر النهضة تسامح مع الجنون وقبله هو الآخر كحالة للوجود الإنساني، حيث «احتل الجنون المناير في الفنون والثقافة والروايات والمسرح، وأحيطت شخصية الجنون بمالة من التقديس والاجلال ممزوج بالخطر والخوف». لقد تحوّل الجنون في هذه الفترة - فيما يرويهِ فوكو - إلى " فن خلاق " يعبّر عن الحقيقة عن طريق الطّرفة والهزل واللّعب والسّخرية « (الحكيم، 2022).

وقد غدت دراسة " ميشال فوكو " خليطا بين الفلسفة والفن والأدب خاصة، ذلك أن العلاقة بين الفلسفة والجنون لا يمكنها بحال أن تنفصل عن قضايا الأدب لأنهما يعكسان العلاقة بين الإنسان وعالمه، والفكر الأدبي ما هو إلّا وجه آخر للفلسفة القائمة في المجتمع.

وقد استخدم الجنون في الأدب كأسلوب مباشر للكشف عن الحقيقة، فكان له الأثر البارز من الناحية الفنية، مستخدما الأفكار الشائعة في ميدان التحليل النفسي، كمحاولة لإيجاد علاقة بين شخصية الأديب وإبداعه الفنّي، ذلك أنّ « العمل الفنّي ليس هو النظام الميكانيكي أو الحسابي، بل هو نظام خاص، دائما يطمح للجِدّة والأصالة والمعاصرة والنفاز في أعماق الذات والواقع والحياة، ويقوم على أساس تأكيد الحساسية الانفعالية والخيال الطليق للفنّان، ولا تتصور إنسانا جامدا العقل بليد الإحساس يمكن أن يقوم بدور الأديب أو حتّى النّاقّد، أو يمكن أن يكون له أي دور في مجال الإبداع الفنّي أو الأدبي بدرجاته المختلفة » (الحميد، 0000)، فإنّ اقتران ظاهرة الجنون بالإبداع الفني والأدبي، راجع إلى أنّ الجنون يتّصف بالحرية وجموح العقل وغيابه، وفيضان الخيال، وربّما هذا ما نتذوقه في كثير من الأعمال الأدبية عامة والروائية على وجه الخصوص.

وقد جعل الكثير من الأدباء من الجنون وسيلة لمواجهة المواقف بأنواعها، لأنّه في نظرهم استراتيجية يستطيعون من خلالها التفاعل بين مكونات المجتمع في نواح شتى، فكرية كانت أو ثقافية أو اجتماعية أو حتى سياسية، من دون التعرض لأي قيود، وذلك بتجسيد شخصيات وأبطال وهميين أو مقتبسين من الواقع يعيشون عالم الجنون، وبذلك يمنح الأديب والكاّتب لنفسه فضاء ومتنفسا حرّا غير خاضع لضوابط وقيود العادات والتقاليد والأعراف والقوانين التي تختلف من بيئة

إلى أخرى. وتكون شخصية المجنون درعا حاميا لذاتية الكاتب في محاولاته لاكتشاف أعماق الذات الإنسانية، وكذا خفايا المجتمع وخباياه.

4/ " العبقريّة والجنون " وكسر البنية السردية في الرواية:

يتخذ الراوي الأسلوب السردى، وسيلة يستعين به لنقل تجاربه ومشاعره، كاشفا من خلاله عن طاقته الفنية

وبراعته الأدبية، لأنّه يرى في هذا الأسلوب صيغة ضرورية لفهم الأحداث ومتغيرات الحياة داخل المتن الروائي، وذلك عبر مجموعة من التقنيات المتبعة تساعد على صياغة عالم موحد وخاص « تتنوع وتتعدد في داخله اللغات والأساليب والأحداث والشخصيات والعلاقات والأمكنة والأزمنة، دون أن يقضي هذا التنوع والتعدد والاختلاف على خصوصية هذا العالم، ووحدته الدالة، بل هو يؤسسها » (بوخالفة، 1986).

إنّ هذه التقنيات مجتمعة، تشكل الهيكل التنظيمي الذي تبنى عليه الرواية، إلّا أننا سنعمد إلى كسر هذه البنية لدراسة جدلية العبقريّة والجنون في رواية " كزّاف الخطايا ". ذلك أن هذه المقاربة ستحاول النظر إلى شخصية البطل المحورية من منظور تشرحي تحليلي، لمحاولة فهم هذا التداخل العجيب بين صفتين متناظرتين اجتماعتا في شكل واحد، استطاع من خلال ذلك تمرير الرسائل التي أرادها الكاتب.

« إنّ قدرة الشخصية على تقمص الأدوار المختلفة التي يحملها إياها الروائي، يجعلها في وضع ممتاز حقاً، بواسطتها يمكن تعرية أي نقص، وإظهار أي عيب يعيشه أفراد المجتمع » (مرتاض، 1998) فكأنّها المرأة التي تعكس العصر بقيمه وآماله وألامه.

فشخصية " منصور " في هذه الرواية، تكسر الرتابة وتخرق أفق تلقي القارئ بشكل مثير وغريب، كونه متخرج لم ينسجم مع أهل قريته، التي هزمت نظامه، ودمرت دوافعه النفسية والعقلية، وهو المتخرج من أعرق الجامعات الفرنسية، فقرّر أن يعتزل الناس أولاً، « واختفى عن العيون ما يقارب الشهر أو يزيد عليه قليلا، لا يبرح غرفته مطلقا، فلا يجيب مناديا، ولا يردّ على طارق، ولا يزور ولا يُزار » (حليح، 2002). وهي العزلة التي قادته إلى التخلّي عن أعظم النعم التي أنعمها الله على الإنسان، حيث تخلّى عن عقله، واتجه بإرادته نحو عالم الجنون، آملا من أهل قريته أن يؤمنوا بذلك، فهو يقول : «سأجعلكم تعترفون وتعتقدون أنّي مجنون » (حليح، 2002)، وهو التصرف الذي

أفقدته تميزه كفرد ذي قيمة ومكانة في المجتمع، ذلك أنه تبَيَّ مجموعة من المتناقضات جعلت منه شخصا مجنونا حقا في أعين الآخرين. فهو يتصرّف بعفوية غير آبه بما يدور حوله ولا حذر من تصرفاته الطائشة، التي توقعه دائما في مواقف حرجة لا يحسد عليها، هذا التقمص جعله يعيش هذا الانشطار، وتمثل الأدوار، وإخفاء الشخصية والبوح حينا، والتورية والمجاز في أحيان أخرى. كل ذلك يفعله وهو يشعر في قرارة دواخله أنه يخاطب الحشد من منصة عالية، منصة من يدرك مالا يدركه الآخرون، منصة الذكاء والوعي والتفوق..

إنّ تداولية هذا الخطاب جعلت السارد يعرض " منصور " كشخصية رئيسية تقوم عليها الرواية، ذلك أنه « البطل الثوري الذي تمتاز توريته برفض العادات والتقاليد الفاسدة والعقليات المتعجرفة » (حبيلة، 2010)، وما قراره بتقمص عالم الجنون إلّا تعبيراً منه لرفضه للامعنى الحياة، حينما اندثرت القيم والأخلاق وتفككت الروابط الاجتماعية، فكثيرا ما كان يعود إلى صورة أبيه في الإطار المعلق على جدار غرفته، يفضض لها قائلا : « آه لو رأيتني يا أبي ..فقد كنت رائعا ..لقد أدت دوري باقتدار .. بدأ بعض الأصدقاء يتحاشوني.. وبعض الأحباب آذوني بالكراهية.. وفي عيون قلّة قليلة أرى الرحمة بي والاشفاق علي» (الحليح، 2002).

ونحن نرى أنه يستحضر شخصية والده المتوفى، الرمز السائد حتى ولو للصراخ في وجهه وانتقاده، إذ ساهمت هذه الشخصية " الأب " بطريقة غير مباشرة في التعرّف عن قرب على شخصية " منصور " ودواخلها النفسية، فطالما كان ملجأه الوحيد الذي شاركه أسراره وأسرار القرية اللعينة التي كان يعيش فيها كلّ متناقضات الحياة.

ونتيجة لهذا الإضطراب الذي أمسى يعيشه، كان المجتمع المائل أمامه مجرد كابوس يشعره بالتفكك والاغتراب، الأمر الذي دفعه للبحث عن حلول تتعدّى الواقع، مكسرا كل القيود، ومتجاوزا كل التقاليد التي منعت من ممارسة حياته كشخص (واعي)، وهو الأمر الذي بعث من حوله الحيرة حتى من أقرب الناس إليه، كما بعث في أنفسهم الحسرة والرتاء. وقد ردّ على أمه التي هرعت إلى القرية مسرعة فور بلوغها نبأ جنونه: «وما الداعي إلى ذلك يا أمي؟.. ليس في مقدور أي كان أن يصير مجنونا لأنّه يريد ذلك كما أنّه ليس في مقدور المجنون أن يكون عاقلا متى شاء.. وكما ترين فقد كتب الله علي أن أكون عاقلا، وأن أشقى بعقلي، وأشقيك معي.. فصبر جميل » (الحليح، 2002).

والرواية في كل أبعادها تقدّم لنا " منصور " على أنّه شخص ذكي، فهو دائماً يأخذ من أهل قريته ما يريد بحيلة وبراعة، معلبة بكثير من البلاهة والعفوية التي تجعل الآخرين يقعون في مصيدته بفضل هذه الشخصية البسيطة المعقدة التي لا تكاد تبوح حتى تلغز، ولا تلغز حتى تبوح .. والتي أوصلته إلى ذروة إبداع تصرفاته المجنونة، عندما قام بتسجيل شريط بأصوات الحيوانات أسماه " سمفونية العبث "، ولم تكن تلك الأصوات إلّا رموزاً سياسية واجتماعية ودينية وأخلاقية .. أوقعت أهل القرية في ضحك هستيري لم يستطيعوا منه إلّا بعدما نبههم بعض الأذكاء إلى مغزاه ومعناه ودلالته، الأمر الذي أوقع " منصور " في يد الدّولة الذي علمته كيف يأكل الحشيش ! بعدما تعرّض إلى شتى أنواع السّبب والشتم والضرب، ما جعله يندم على أوّل يوم قرّر أن يكون فيه مجنوناً، ولكنّه وعند خروجه من السجن مباشرة - ونتيجة للعنف الذي عاشه - قرّر أن ينتقم من الجميع .. وخاصة من أهل قريته الذين تركوه يواجه ظلم الدّولة والنظام وحده. «لقد انتهت المرحلة الأولى بحياة أمل كبيرة.. تركتموني وحدي أواجه الدّولة، فأوجعتني ضرباً وأشبعني إهانة.. لستم طيبين كما كنت أظنّ مخدوعاً، ولا عذر لكم عندي بعد اليوم (..) فلا بدّ أن يتحمّل كل واحد منكم تبعه أوزاره، ويستعد ليحصد غلال معاصيه » (حليح، 2002).

وهكذا يبدأ الانتقام الذي جعل القرية تعيش على إيقاع الفوضى ثلاثة أيام كاملة وتحقّق وعد منصور الذي كشف كلّ مستور وفضح كلّ مخفي ..

وقد قدّم السّارد " منصور " كشخصية يتخطّطها « التمرّق الروحي الذي تعيشه، والذي يدفعها دائماً (..) إلى رفض الحياة جملة وتفصيلاً » (الأعرج، د ت)، حياة الكذب والنفاق، وتلق المستكبرين .. حياة وصلت ذروة الاغتراب النفسي عندما نفّرت من بني جلدته وجعلته يصاحب ويستأنس الحيوانات حيث يقول : « لست مستعداً مطلقاً أن أطرّد الكلب، بل إنّني سوف أستأنس ذئباً، مؤنساً للكلب ورفيقاً، وسأعلم الذئب كيف ينبح والكلب كيف يعوي، وسأربّي الدّجاج والققط البرّية في خم واحد .. » (حليح، 2002).

إنّه جنون بدأ يتسرّبل بعدد آخر لا يفهمه الكثير .. بعد غيبي روحي، واغتراب ديني صوفي عميق، جعله ينظر إلى نفسه على أنّه ولي من أولياء الصالحين، فهو يعيش هذه النزعة بطريقة غريبة وكما يحلو له، ولما لا يفعل وقد وضع نصب عينيه فكرة تغيير الذات والتماهي مع الوجود.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم محمد المغازي. (2004). هل العبقرية جنون؟، جامعة قناة السويس، د.ط، 2004.
جامعة قناة السويس: جامعة قناة السويس.
2. ابن فارس. (1997). مقاييس اللغة. د ب: د ن.
3. ابن منظور. (1995). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
4. الشريف حبيبة. (2010). الرواية والعنف، دراسة سوسو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة .
الأردن: عالم الكتب الحديث.
5. الطاهر ابن عاشور. (1984). تفسير التحرير والتنوير . د ب: د ن.
6. الكيلاني حسين عبد الحفيظ. (2009). الموهبة والتفكير الإبداعي في التعليم . الأردن: دار دجاة.
7. أندرو روبرسون. (2014). العبقرية، تر: رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .
د ب: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
8. جلولي عبد الحكيم. (2022). محمد شوقي الزين : مفهوم الجنون عند ميشال فوكو . وهران: د ن.
9. ريتشارد شاخ. (0000). مستقبل الاغتراب. د ب: منشأ المعارف.
10. سميرة عباسي. (2000). الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري. دمشق: دار الينابيع.
11. سناء محمد سليمان. (ط 1 2008). الأمراض النفسية والأمراض العقلية، عالم الكتب، القاهرة،
ط 1، 2008. القاهرة: عالم الكتب.
12. شاكر عبد الحميد. (0000). الأدب والجنون، د.ط، د.ت ، www.kotobarabia.com. د
ب: د ن.
13. صبري محمد خليل. (2015). الجنون بين المفهوم الدارج والعلمي، Drsabrikkhalil-
wordpress.com 2015. د ب: د ن.
14. عاطف عمارة. (د ت). الشخصية العبقرية . د ب: د ن.
15. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. (0000). تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المتان. د ب: دار
التوبة.
16. عبد الله عيسى خليلح. (2002). كراف الخطايا. عنابة: مطبعة المعارف.
17. عبد الملك مرتاض. (1998). في نظرية الرواية . الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

18. عزة حجازي. (0000). الشباب العربي ومشكلاته. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة.
19. عزة حجازي. (1985). الشباب العربي ومشكلاته. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
20. فتحي بوخالفه. (1986). الرواية العربية بين الواقع والأيديولوجيا. سوريا: دار الحوار.
21. فيصل عباس. (2008). الاغتراب (الإنسان المعاصر وشفاء الوعي). بيروت: دار المنهل اللبناني.
22. محمد بن أبي بكر الرازي. (2004). مختار الصحاح. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
23. مقحون فتيحة. (2020). السمات الشخصية والحاجات النفسية، الاجتماعية للطلاب الموهوبين والمتفوقين أكاديمياً، رسالة ماجستير . بسكرة.
24. ميخائيل أسعد يوسف. (1986). سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب. مصر: مطابع الهيئة المصرية للكتاب .
25. واسيني الأعرج. (د ت). اتجاهات الرواية العربية في الجزائر . الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب .
26. يحيى العبد الله. (2005). دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية . بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.